المشرق

أوجه الإعراب عند العرب والأعراب

لحضرة الاب انستاس الكرملي البغدادي (تتمّة لما سبق)

هذا هو اصل وجوه الإعراب عند بني سام حينما كانوا يتكلّمون لغةً واحدة. ثم لمّا تفرّقوا على وجه الارض بالطول والعرض وتباينت العوائد وتفاوتت الاخلاق وتغايرت الآداب كل قوم بحسب العوامل التي فعلت عليهِ كان من الامر ما كان. ولمّا استبقى الناطقون بالضاد من الالفاظ الاصليّة تلك الدوالّ الاثريّة اصبح العرب والأعراب يتكلّمون على سَنَنٍ واحدٍ ويشهد على ذلك ما وصل الينا من نظم شعراء الأعراب في زمن الجاهليّة وهو من الادلّة ما لا ينالهُ أدنى وصمة. ثم لم يمضِ على ذلك السنن ردحٌ من الدهر حتى ادخلوا في كلامهم سنّة الوقف على اختلاف انواعهِ ومن هذه الانواع إسكان الآخر وهو اعمّها وادورها على الألسن. ومنذ ذاك الحين اخذ الإعراب بالتزعزع. وفي تلك المطاوي استُنبطت الكتابة ثم ظهر الإسلام بعد بُرهةٍ ودُوّنت العلوم العقليّة والنقلية وشاعت القراءة ورُوعيت قواعدها فأصبح الوَقف من العوامل الفعّالة في اهمال دلائل الإعراب لان الكلام الموقوف عليها شيء ابقى في الآذان والحافظة من سواها اذ انها آخر علامة تصدر من الشفتين وآخر صوت يدوي في الآذان وآخر مدخول يلج أبواب الجنان فيُحتفَظ بهِ اتمَّ الاحتفاظ ويُرَجَّحُ دونهُ الصادر ويبقى هناك آمرًا ناهيًا. ثمَّ انهم بعد ذلك اهملوا تلك العلامات شيئًا فشيئًا ورأوا انهم في غنًى عنها لان فَهم المراد بقي على حالهِ كما لو أُجريَت عليهِ تلك الدلائل. وعليهِ: « فاذا نظرنا الى (النحو والى) ضرورتهِ وأقسامهِ المدوَّنة وجدنا اكثرها غير محتاج اليهِ في إفهام المعاني. ألا ترى انك لو امرت رجلًا بالقيام فقلتَ له: قُومْ. باثبات الواو ولم تجزم لما اختلَّ من فهم ذلك

شيء. وكذلك الشرط لو قلت: «إن تَقُومْ أَقُومْ» ولم تجزم لكان المعنى مفهومًا. والفضلات كلها تجري هذا المجرى كالحال والتمييز والاستثناء. فاذا قلت: «جاء زَيدْ راكبْ. وما في السماء قدر راحة سحابْ. وقام القوم الّا زَيدْ». فلزمتَ السكون في ذلك كلّهِ ولم تُبيّن إعرابًا لَما توقّف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زَيد. وهكذا يُقال في المجرورات وفي المفعول فيهِ والمفعول لهُ والمفعول معهُ وفي المبتدإ والخبر وغير ذلك من أقسام أُخر لا حاجة الى ذكرها. لكن قد خرج عن هذه الامثلة ما لا يُفهم الّا بقيود نقيّدهُ. وانّما يقع ذلك في الذي تدلّ صيغتهُ الواحدة على معانٍ مختلفة» (هذا من كلام صاحب المثل السائر ص ٥) وفي ذلك ايضًا قد غلط شعراء مُفلقون ولغويّون مبرّزون وقد حذوا في ذلك حذوَ العامّة اذ ان من هؤلاء من كان يُظهر التقعّر في اظهار علامات الإعراب فيجعلها في غير محلّها لكي لا يساوي الغير الذين يُسكّنون اواخر الكلم.» ولا اعني بالشعراء من هو قريب عهدٍ بزماننا بل اعني بالشعراء من تقدّم زمانهُ كالمتنبيّ ومن كان قبلهُ كالبحتري ومن تقدّمهُ كأبي تمام ومن سبقهُ كأبي نواس» (المثل السائر ص ٧) وقد كان اللحن معروفًا في اوّل الاسلام قال السيوطي: «بل قد روينا من انظ النبي صلى الله عليهِ وسلم انهُ قال: «انا من قُرَيش ونشأتُ في بني سعد فأنّى لي اللحن». وكتب كاتب لابي موسى الاشعري الى عمر فلحن فكتب اليهِ عمر: أن اضربْ كاتبك سوطًا واحدًا. وكان علي بن المديني لا يُغيّر الحديث وان كان لحنًا الّا ان يكون من لفظ النبي صلى الله عليهِ وسلم فكأنّهُ يجوّز اللحن على من سواه» (اه كلام المزهر ٢ : ١٩٩ و ٢٠٠). والظاهر من ذلك ان اللحن كان قد انتشر قبل ظهور الاسلام بكثير. بخلاف ما قالهُ صاحب مجلّة البيان (١

(١) قال صاحب البيان في سنتهِ الاولى والاخيرة ص ٢٨٥ ما نصّهُ بحرفهِ: «ومعلومٌ ما كان للعرب من العناية بلغتهم والمغالاة بمحاسنها والتفنن في اوضاعها واساليبها الى ما لم تلحقهم فيهِ امّة فلم يكن من المحتمل (كذا) انهم يعمدون الى اهمال شيء منها هو حِليتها وجمالها اعني بهِ الاعراب الذي هو الفارق الاعظم بين العامي والفصيح (كذا بحرفهِ. على اننا نرى ابن الاثير والسيوطي وابن بطوطة وسائر ائمّة العرب يخالفون رأي الشيخ) وانما كان ذلك ولا شك بعد الاسلام (كذا. والسيوطي يقول ٢ : ١٩٩ ما حرفهُ: اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعرّبين من عهد النبي صلى الله عليهِ وسلم. فقد روينا انّ رجلًا لحن بحضرتهِ فقال: ارشدوا اخاكم فقد ضلّ. اه بحرفهِ) وسببهُ كثرة اختلاط العرب بالاعاجم من اهل البلاد التي افتتحوها (ويسوؤنا ان نكرّر هنا

ومن علماء اللغة من كان اذا تحيّر في اعراب الكلمة يُسقط حركاتها . وان مثل هذا العمل يصدر من الائمة مما يسوق الغير الى اقتفاء آثارهم . ونستدلّ على ذلك من كلام المزهر قال (٢ : ١٩٩) « وقال ابو بكر لأن أقرأ فأُسقط احبُّ اليَّ من ان اقرأ فالحن » اه

ومما تقدّم ترى ان الوقف هو الذي اوقف حركة تجرى الحركات على اواخر الكلم . وهو السبب الاعظم بين اسباب اخرى عديدة لكنها على رأينا كلها فرعيّة . ومن اهم

ايضاً كلمة « كذا ») وتعذُّر اقامة الاعراب على ألسنة هؤلاء اذ هو عند العرب مأخوذ بالسليقة واماَّ الاعجمي فلا يتناوله الَّا من طريق التعلّم والتحفّظ وهو محالٌ في حق امّةٍ بل أمَمٍ بأسرها (كذا) ممّن خفقت على رؤوسهم عُقاب العرب فكان ذلك ولا ريب قاضياً باهمال الحركات من اواخر الكلم » . . (اه بحرفهِ) . ثم قال حفظهُ الله ورعاهُ بُعَيد ذلك ما نصّهُ : « فاذا تقرّر هذا عُلِم منهُ انَّ اللغة العاميَّة قد بدأت بعد الاسلام بسنين قلائل اي منذ عهد الفتوح (كذا . وقد علمت فُوَيق هذا فساد هذا القول من شواهد ائمّة العرب) الَّا انها كانت اولاً بين الاعاجم للسبب الذي قدّمناهُ فهي اذن بدأت باول اعجميّ تكلّم بالعربية . (كذا . وكنَّا نحبّ ان يورد لنا اسم هذا الاعجمي ومن ايّ ملّة ونحلة وامةٍ كان . ثم ان هذا هو ايضاً رأي بعض العرب لكنهُ مردود لان هؤلاء الكتبة تصوّروا ان اختلاط الناطقين بالضاد هو من عهدٍ قريب . لكن التاريخ يثبت بان ذلك من عهدٍ عهيد . ولو راجع الشيخ كتاب اشور وبابل الذي وقف على طبعهِ قبل ان يكتب تلك المقالة تحقّق انَّ هذا الاختلاط هو منذ قديم الزمن) . ثم انتشرت بين العرب انفسهم ممّن نشأ في ذلك العهد بمخالطتهم للاعاجم وتكرّر اللحن على اسماعهم حتى فسدت فيهم ملَكة الاعراب . ومن شواهد ذلك ما يروى من قصّة ابي الاسود الدؤلي في وضع مبادئ علم النحو » . . . (ثم حكاية ثانية ثالثة وكلها من بعد الاسلام مع ان اللغويين قد ذكروا غيرها قبل الاسلام) . ثم انتقل الى كلامهِ الى لغة اهل البادية فقال : « على ان ذلك كلهُ انما كان في الامصار ومواطن الحَضَر حيث وقع الاختلاط بالعجم . واماَّ في البادية فبقيت اللغة على خلوصها دهراً طويلًا (كذا . وهذا من اعظم الاوهام . فاننا سوف نثبت لحضرة الشيخ اللغوي خلاف ما يدّعي) لم يكد يشوبها لحنٌ ولا تبديلٌ كما يشهد بذلك ما ذُكر من مسألة الكسائي وسيبويه وكما يُستفاد مما ذكرهُ صاحب الصحاح من انهُ شافَهَ بها العرب العاربة في ديارها بالبادية وذلك في النصف الثاني من المئة الرابعة للهجرة . الَّا انهُ مع كرور الزمن دبّ هذا الفساد الى البادية ايضاً بمخالطتهم للحضر ولا سيما في الحجاز لكثرة اختلاف الحجّاج اليهِ من جميع الآفاق وسرى من اولئك الى غيرهم من سائر سكان الاقطار العربيّة الى ان زالت الفصاحة من ألسنتهم جملةً (كذا . ومن هذا يُستنتج ان زوال الفصاحة يكون بزوال الاعراب من اواخر الكلم . وهو لعمري من مكتشفات هذا الكاتب النحرير لكن يصعب ويشقّ عليَّ ان اقول لهُ اني قرأت في كتاب المثل السائر خلاف هذا الرأي الجديد . قال ابن الاثير في الص ٨ ما حرفهُ : « ينبغي لك ان تعلم انَّ الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة

هذه الاسباب الثانوية اختلاط العرب والأعراب بالعجم والأغراب (١. غير اننا نجعل هذا السبب في أخريات سائر الاسباب. وان قال بهِ جماعة من العلماء. قال في المزهر نقلاً عن واحد من الائمة: « واعلم ان اول ما اختـلَّ من كلام العرب وأحوج الى التعلُّم الإعرابُ. لانَّ اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعرّبين من عهد النبي صلى الله عليهِ وسلم فقد رُويـنـا ان رجلاً لحن بحضرتهِ فقال: ارشدوا اخاكم فقد ضلَّ ». (المزهر ٢: ١٩٩). وهذا الرأي مردود لان الموالي والمتعرّبين وُجدوا بين العرب قبل الاسلام بكثير لا بل باحقاب عديدة كما يشهد بذلك التـاريخ الذي نقلهُ الافرنج عن قدماء الكلدان والاشوريين والعرب انفسهم. لكنّنـا لا ننكر ان دخول الأغراب بين الأعراب لم يؤثّر شيئاً على الإعراب على ممرّ الاحقاب بل أنّا نجعل ذلك من بعض الاسباب التي فعلت شيئاً من هذا الفعل مع الوقف الذي كان اول من فتح هذا الباب

امَّا قولنا انهُ حاصل من الوقف فلنـا على ذلك ادلَّة لا تُعدُّ ولا تُحصى ولا يُسبر غورها ولا يُستقصى. نأخذها من الذين يهملون تلك العلامات اي عن العامة ونقابلها باقوال النحويين. وكما انَّ هؤلاء يذكرون للوقف خمسة أنواع. الثلاثة منهـا اي

ولكنهُ يقدح في الجاهل بهِ نفسهُ لانهُ رسوم قوم تواضعوا عليهِ وهم الناطقون باللغة فوجب اتباعهم. والدليل على ذلك ان الشاعر لم ينظم شعرهُ وغرضهُ منهُ رفع الفاعل ونصب المفعول او ما جرى مجراهما. وانما غرضهُ إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتّصفَين بصفة الفصاحة والبلاغة. ولهذا لم يكن اللحن قادحاً في حسن الكلام لانهُ اذا قيل جاء زيد راكب ان لم يكن حسناً الّا بان يقال جاء راكباً بالنصب لكان النحو شرطاً في حسن الكلام « وليس كذلك » (اه). وصارت لغتهم اليوم دون لغة الحضر وابعد منهـا عن الفصيح (لا ندري ما يُريد بالفصيح. ولا شك انهُ يأتي بهذا اللفظ بمعنى غير المعنى المصطلح عند البيانيين) ودخلت في حدّ الرذل المبذول » (الى هنا كلام البيان)

١) قال الذكيُّ اللوذعي واللغوي الالمعي الشيخ ابراهيم اليازجي في الضياء ١: ١٨٤ ما نصهُ: « ويقولون (اي اصحاب الجرائد) هؤلاء قوم أغراب يريدون جمع غريب (كذا. بدون ان أغيّر كلامهُ الصائب) وهذا الجمع غير مسموع في هذا الحرف والصواب غرباء لان جمع فعيل على افعال من الجموع السماعية فلا يتعدّى المنقول منهم ». اه بحرفهِ. قلنا: ان الاغراب ليس جمع غريب كما توهّمهُ بل جمع غُرُب بضمّتين بمعنى غريب كما انَّ جُنُباً يُجمع على أجناب. قال ابو دؤاد في صفة فرس:

رطـبرَّة كهراوة ‖ أغراب ليس لها عدائدْ

الإسكان والرّوم والإشمام هي بمنزلة اهمال الحركة في الاخر. فالعامّة ايضاً يهملونها على ذلك السَّنَن في أغلب الفاظ كلامهم. وحينا لا يُسكنون الحرف الاخير فانهم يشدّدونهُ وينقلون حركتهُ الى ما قبلهُ. اي انهم يعمدون في ذلك الى النقل والتضعيف وهما النوعان الباقيان من أنواع الوَقف الخمسة (راجع الاشموني على ابن مالك ٤ : ١٤٨). واثبات رأينا هذا يستلزم وضع كتاب برأسهِ او على الاقل: وضع مقالةٍ موقوفةٍ على هذا البحث. لكن ذلك لا يمنعنا من ان نذكر هنا بعض الشواهد على حدّ قول القائل: ما لا يُدرك كلهُ لا يترك كلهُ

يقول البغاددة مثلاً: « جا بكْرْ ». « ومررتُ بَبكِرْ » وحركتا الكاف غير صريحتين (وهذا البحث قد اعددنا لهُ مقالة أخرى). ويقول اهل البادية: « جا كاتْلَه » والمسلمون من الحضر: « جا كاتْلَهْ ». والنصارى: « جا قاتِلو » ولهذا النوع من الوقف اي نقل الحركة من الاخير والقائها على ما قبلها كلام واضح في كتب النحويين. قال احدهم: نقلُ حركة الحرف الموقوف عليهِ الى ما قبلهُ بشرطين احدهما ان يكون ساكناً والآخر ان يكون تحريكهُ لن يُختَلَ اي لن يُمنع. فتقول في نحو بكر: هذا بَكُرْ ومررتُ ببَكِرْ. ومنهُ قولهُ:

عجبتُ والدهر كثيرٌ عجَبُهْ من عنزيٍّ سبَّني لم أضرِبُهْ

اراد لم أضرِبْهُ فنقل ضمّة الهاء الى الباء » (اه بحرفهِ عن الاشموني ٤ : ١٤٩)

امّا قول اهل البادية « جا كاتْلَه » في « جاء قاتلُه ». فهو مثل ما تقدّم ذكرهُ من نقل حركة الآخر الى ما قبلهُ. وامّا قلب القاف كافاً فمن لغات العرب القديمة كما صرّح بهِ صاحب المزهر (١ : ٢٦٨) وذكر امثلة كثيرة منها قسط وكسط وسكع وسقع والدك والدق. وامّا إسكان التاء فهو ليس سكوناً صريحاً بل حركةً مختلسة. والاختلاس كان معروفاً عند قدماء العرب

وامّا قول المسلمين من الحضر « جا كاتْلَهْ » فانهم في ذلك لم ينقلوا حركة الاخير الى ما قبلهُ. بل اسكنوا الاخير وأبقوا اللام ساكنة كما كانت عندهم قبل اتصالها بالضمير فاجتمع عندهم ثلاثة سواكن فحركوا الثاني بالفتح طلباً للخفّة كما هو مثبت في علم الصرف. وأبقوا البقيّة على حالها. ومن ذلك ايضاً ترى ان هذا الكلام يرجع الى فصيحٍ بعد التحقيق

واما قول النصارى: « جا قاتِلو » فانهم لمَّا سكَّنوا الآخر بادئ بدء وقالوا: « جا قاتِلهْ » ضَعُفَ صوت الهاء فأسقطوها وعوَّضوا عنها باشباع اللام وقالوا: « قاتِلو » (١

والخلاصة ممَّا مرَّ بك ان اصل حركات الاعراب كلمات كان لها معانٍ قائمة بذاتها ثمَّ نُقلت الى أحرُف طلبًا للخفَّة في الكلام ثم الى حركاتٍ اشارةً الى اصلها الذي يُقابلها. ثمَّ أُهملت استغناءً عنها بفهم المراد مع تركها. وقد تحقَّقتُ ايضًا امرًا ثانيًا لم نوصد هذه النبذة له وهو ان اللغة العاميَّة ترجع الى لغة فصيحة بعد مراجعة الامهات التي تولَّدت عنها. فسبحان من يغيّر كلَّ شيء ولا يتغيَّر دلالةً على انهُ هو وحدهُ الحيُّ الباقي:

تجيءُ وتقضي بابةٌ بعد بابةٍ وتفنى جميعًا والمُحرِّك باقِ

هل ملك بنو غسَّان دمشق الشام ؟

للاب هنري لامنس اليسوعي

ذلك امرٌ كنَّا انكرناهُ في مقالتنا الحديثة عن اصل الروم الملكيين (راجع المشرق ٣: ٢٧٣). على انَّ جناب الكاتب الاديب امين ظاهر خير الله لم يصادق على قولنا

١) ونختم هذه المقالة قائلين: انهُ لا يمكن اليوم وجود موطن من مواطن المعمور يتكلَّم اصحابهُ على مقتضى اصول الاعراب وذلك امَّا ان هؤلاء يُعربون اواخر الكلم ويُسقطون الحركات عند الوقف. وامَّا انهم لا يُعربونها. فان كان الثاني فقد خالفوا تلك الاصول وهذا اوضح من الصبح لذي عينين. وان كان الاول فيستحيل وجود مثل هؤلاء الناس على ما ذكرنا من تأثير فصل الكلم الاخيرة على مسامع الانسان وذاكرتهِ كما اسلفناهُ في هذه النبذة. ولهذا لا نُصدّق ابدًا ما اوردهُ صاحبا القاموس والتاج ونقلهُ البيان. وهذا نص هذه الجملة بعد ان حذفت بعض الزوائد المستطردة. قالت: « جاء في القاموس في مادة (ع ك د) ذكر الجبل المسمَّى بعكَّاد وهو جبل باليمن قرب مدينة زبيد زعم انَّ اهلهُ باقون لعهدهِ على اللغة الفصحى وذلك بين المئة الثامنة والتاسعة للهجرة. وزاد في تاج العروس قولهُ الى الان اي الى عصر الشارح وهو اواخر المئة الثانية عشرة قال ولا يقيم الغريب عندهم اكثر من ثلاث ليالٍ خوفًا على لسانهم. اه. وزاد البيان كلامًا نستحسنهُ كل الاستحسان: « وهو من الغرابة بمكان. والله اعلم »